وصية السلطان محمد الفاتح
(1451 – 1481م)
لابنه بايزيد الثانى
(1481 – 1512م)

دكتورة
نعيمة عبدالله بن دهيش
قسم التاريخ والحضارة الإسلامية
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

وصية السلطان محمد الفاتح (1451 – 1481م) لابنه بايزيد الثانى(1481 – 1512م)

د. نعيمة عبدالله بن دهيش
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

مُقَدِّمَة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الأطهار.

يتناول هذا البحث وصية السلطان محمد الفاتح (855 – 886هـ / 1451 – 1481م) لأبنه بايزيد الثانى (886 – 918هـ / 1481 – 1512م).

يقترن اسم السلطان محمد الثانى بحادث مهم فى تاريخ الشرق الأدنى وهو فتح القسطنطينية، ولهذا علقت باسمه صفة الفاتح ولهذا السبب أيضاً تبوأ مكاناً بارزاً بين سلاطين الدولة العثمانية، وقد امتاز بدبلوماسية واعية متيقظة وأطماع واسعة لمصالح دولته، وشجاعة فى الحروب، وتعمق فى دارسة الجغرافيا والتاريخ والعلوم العسكرية وكان يتكلم التركية والعربية والفارسية واليونانية، وكان للسلطان محمد الثانى حروب فى آسيا الصغرى، حتى قضى على مملكة طرابزون – وهى مملكة مسيحية يونانية فى شمال الأناضول – وخاض حرباً ضد إمارة أوزون حسن التركمان فى أعالى الفرات.

ممن خلال هذه الخبرات والثقافات للسلطان محمد الفاتح وصى ابنه بايزيد الثانى وهو على فراش الموت، فأعطاه خبراته الحياتية فى وصية؛ لكى يسير عليها ابنه من بعده، وتوسم الفاتح فى ابنه خيراً بأن يضع ما يريده فقد كان السلطان بايزيد وارثاً عن أبيه حبه للعلم وإعلاء شأن دولتهم الإسلامية فكان بايزيد محباً للأدب، متفقهاً فى علوم الشريعة الإسلامية، شغوفاً بعلم الفلك، واستعان

بالخبراء الفنيين اليونانيين والبلغاريين فى تحسين شبكة الطرق والجسور التى أقامها فى الأستانة، واستطاع فى الميدان الأوروبى أن يحرز نصراً بحرياً على البنادقة فى خليج لبانتو ببلاد اليونان ، وكان بايزيد محبا للسلام ونشطت العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية وأوربا فى عهده، وكانت من قبل مقصورة على البلاد الواقعة على حدودها، واهتم بايزيد ببناء الجوامع والمدارس والعمارات ودور الضيافة والتكايا والزوايا والمستشفيات للمرضى والحمامات والجسور، ومنح الهبات لفقراء الحرمين الشريفين فى مكة والمد ينة، ولكن الوصية تبحث الجوانب التى تمسك بها بايزيد الثانى وفعل ما أراده أبوه، وهناك من البنود ما لم ينفذها بايزيد الثانى وسنوضح ذلك خلال البحث.

أهمية البحث وسبب اختياره:

قامت الدولة العثمانية فى القرن الرابع عشر على أنقاض دولة الروم السلاجقة، ولقد عاشت الدولة العثمانية أكثر من ستة قرون، ومما لا ريب فيه أن الدولة العثمانية قد تكاثرت حولها الافتراءات والأباطيل وليس هذا أنها كانت مبرأة من المآخذ والعيوب.

ويعتبر التاريخ العثمانى مكملاً لتاريخ الإسلام، وأن السلاطين العثمانيين كانت لهم الهيبة والمحبة فى نفوس المسلمين أسوة بغيرهم من الخلافاء الأمويين والعباسيين.

وتمثل الوصية التى بين أيدينا مبادئ ومناهج حياتية لكى يسير عليها السلطان ويسير بمقدرة فائقة على وضع النظم الإدارية والعسكرية، والاهتمام بالدين، وحب العلماء، لأن العلماء الصالحين هم البطانة التى تقود الحاكم إلى الطريق الصحيح. وتعبر هذه الوصية عن وصية سابقة وصى بها المؤسس الأول عثمان لابنه أورخان وكلتياهما ينتج عنهما عدة عوامل أهمها: الروح الدينية الجياشة، والطبيعة العسكرية الصادقة، والموقع الجغرافى للإمارة العثمانية فى

الشمال الغربى للأناضول، والأوضاع السياسية فى المنطقة المحيطة بالأتراك العثمانيين.

المنهج المستخدم:

استخدمت فى البحث المنهج التاريخى لمعرفة الأحداث المرتبطة فى فترة السلطان محمد الفاتح، وأيضاً بايزيد الثانى لمعرفة مدى تنفيذه للوصية.

وأيضاً المنهج التحليلى للوقوف على الحقائق التى ورثها بايزيد الثانى عن أبيه ومدى تحقيق هذه الوصية والجوانب التى خالف فيها الوصية.

الوصية:

هذه هى وصية محمد الفاتح لابنه وهو على فراش الموت والتى تعبر أصدق التعبير عن منهجه فى الحياة، ومبادئه التى آمن بها والتى يتمنى من خلفائه من بعده أن يسيروا عليها:

"ها أنذا أموت، ولكنى غير آسف؛ لأنى تاركاً خلفاً مثلك. كن عادلاً صالحاً رحيماً، وابسط على الرعية حمايتك بدون تمييز، واعمل على نشر الدين الإسلامى، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض، قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شئ، ولا تفتر فى المواظبة عليه ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين، ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون فى الفحش، وجانب البدع المفسدة، وباعد الذين يحرضونك عليها، وسع رقعة البلاد بالجهاد واحرص أموال بيت المال من أن تتبدد، إياك أن تمد يدك إلى مال أحد من رعيتك إلا بحق الإسلام، واضمن للمعوزين قوتهم، وابذل إكرامك للمستحقين. وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة فى جسم الدولة، فعظم جانبهم وشجعهم، وإذا سمعت بأحد منهم فى بلد آخر فاستقدمه إليك وأكره بالمال، حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك، وإياك أن تميل إلى عمل يخالف أحكام الشريعة، فإن الدين غايتنا، والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا. خذ منى هذه العبرة: حضر هذه البلاد كنملة صغيرة، فأعطانى الله – تعالى – هذه النعم الجليلة، فالزم ملكى، وأحذ حذوى، واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله، ولا تصرف أموال الدولة فى ترف أو لهو، أو أكثر من قدر اللزوم، فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك".[1]

السلطان محمد الفاتح:

[1] عبد السلام عبد العزيز فهمى: السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم، دار القلم، دمشق، ط4، 1407هـ – 1987م، ص 171، 172.

فى 30 مارس عام 1432م ولد السلطان محمد الثانى الذى اشتهر فى التارسخ باسم محمد الفاتح [1] خضع الفاتح لنظام تربوى صارم تحت إشراف مجموعة من علماء عصره المعروفين مثل أق شمس الدين، وأخضعه شيوخه إلى دراسة أكاديمية منظمة وهو ما يزال غضاً فتعلم القرآن الكريم، والحديث، والفقه، والعلوم العصرية – آنذاك. من رياضيات وفلك وتاريخ ودراسات عسكرية نظرية وتطبيقية، كان الفاتح يشترك فى الحروب التى كان يشنها والده السلطان مراد الثانى ضد أوربا، وفى صغر الفاتح أسند والده له إمارة مغنسيا تحت إشراف مجموعة من علماء الدين؛ ليؤهل لقيادة الدولة بعد ذلك.[2]

شكلت مجموعة من علماء الدين حياة الفاتح وفى مقدمتهم الشيخ آق شمس الدين الذى كان صارماً مع الأمير، حتى أن السلطان محمد الفاتح قال لأحد وزرائه عن شيخه هذا: "إن احترامى لهذا الشيخ احترام يأخذ بمجامع نفسى وأنا ماثل فى حضرته مضرباً ويداى ترتعشان". [3] وأثر فى الفاتح الشيخ الملا الكورانى، وهو عالم الدين عند العثمانيين الأوائل، حيث كان موسوعياً فى شتى علوم المعرفة فى عصره.[4]

ودرس الفاتح العربية والفارسية والتركية، والسلطان محمد الفاتح شاعر له ديوان شعر بالتركية، وله بيت مشهور يقول فيه:

نيتى هى الامتثال للأمر الإلهى جاهداً فى سبيل الله

---

(1) د. محمد حرب: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى، القاهرة1994م، ص 45.

(2) د. محمد على الصلابى: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، بورسعيد، مصر، ط1، 2001م، ص 89.

(3) د. عبد اللطيف عبد الله دهيش: قيام الدولة العثمانية، ط2 عام 1995م، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ص73.

(4) د. زكريا سليمان بيومى: قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، ط1 1991م، عالم المعرفة، القاهرة، ص 46.

وحماسى إنما هو حماس فى سبيل دين الله[1]

وعرف الفاتح اللغات اللاتينية واليونانية والصربية، وكان الشيخ أق شمس الدين يلعب دوراً مهماً فى تكوين شخصية السلطان محمد الفاتح، وإن يبث فيه منذ صغره أمرين هما:

أحدهما: مضاعفة حركة الجهاد العثمانية.

ثانيهما: الإيماء دوماً لـ محمد الفاتح منذ صغره بأنه هو الأمير المقصود بالحديث النبوى: "لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش".[2]

عمل السلطان الفاتح على تطوير الجيش البرى والقوة البحرية وظهرت أهميتها منذ فتح القسطنطينية وأقام العدل بين العربية، ولكى يتأكد من ذلك الأمر كان يرسل بين الحين والحين إلى بعض رجال الدين من النصارى بالتجوال والطواف فى أنحاء الدولة ويمنحهم مرسوماً مكتوباً يبين مهمتهم وسلطتهم المطلقة فى التنقيب والتحرى والاستقصاء، لكى يطلعوا كيف تساس أمور الدولة وكيف يجرى ميزان العدل بين الناس فى المحاكم، وقد أعطى هؤلاء المبعوثين الحرية الكاملة فى النقد وتسجيل ما يرون، ثم يرفعون ذلك كله إلى السلطان. وقد كانت تقارير هؤلاء المبعوثين النصارى تشيد دائماً بحسن سير المحاكم وإجراء العدل بالحق.[3]

وقد تميز عصر السلطان محمد الفاتح بإنشاءات عسكرية عديدة ومتنوعة، فأقام دور الصناعة العسكرية لسد احتياجات الجيش من الملابس والسروج والدروع

---

(1) د. محمد حرب: المرجع السابق، ص48.

(2) رواه أحمد فى مسنده (4/335).

(3) قطب الدين محمد بن أحمد المكى: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى، دار اليمامة، الرياض1 ط عام 1967م، ص 132.

ومصانع الذخيرة والأسلحة، وأقام القلاع والحصون فى المواقع ذات الأهمية العسكرية، وكان هناك صنف من الجنود يسمى "الغمجية" وظيفته الحفر للألغام وحفر الأنفاق تحت الأرض أثناء محاصرة القلعة التى يراد فتحها.[1]

كان فتح القسطنطينية بداية لسلسلة من الانتصارات العثمانية الرائعة أحرزها العثمانيون فى البر والبحر، فلم تأت أواسط القرن السادس عشر، حتى استطاع العثمانيون أن يبسطوا نفوذهم على مناطق شاسعة فى أوربا الوسطى مثل: المجر ورومانيا وجنوبى بولونيا وأجزاء من شرق النمسا. وزحف العثمانيون على مدينة فينا وحاصروها لأول مرة فى سنة 1529م، ثم حاصروها للمرة الثانية فى سنة 1683م. وبالرغم من فشل العثمانيين فى هذين الحصارين الشهيرين، فإن مجرد وصول فتوحاتهم إلى قلب أوربا المسيحية على هذا النحو آثار الرعب والفزع فى أرجائها. [2]

وكان للفاتح تكتيك يدل على براعته فى فتح القسطنطينية، حيث اتخذ السلطان الفاتح وبرفقته خليل باشا موقعهم فى مواجهة المنطقة الوسطى من أسوار القسطنطينية، وبرفقتهم العديد من القوات البرية، وأصدر الفاتح أوامره بحصار السور البحرى، ونجح العثمانيون بإنزال حوالى 72 سفينة إلى مياه خليج القرن الذهبى، وكان هذا الانجاز العسكرى على القسطنطينية مروعاً للبيزنطيين. [3]

وحينما فتح السلطان الفاتح القسطنطينية عام 1453م أمر قواده ألا يهدموا الكنائس والمعابد وأعلن استانبول: " ليعيش اليهود فيها وليأكلوا من أرضها

---

(1) يوسف آصاف: تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام الجباى، دار البصائر، ط2، 1985م، ص 92.

(2) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، القاهرة، ط3، 1896م، دار النفائس، ص74.

(3) نيقولا باربارو: الفتح الإسلامى للقسطنطينية يوميان الحصار1453م، دراسة وترجمة وتعليق د. حاتم الطحاوى، عين للدراسات والبحوث، القاهرة،1طعام2002م، ص37، 38، 39.

ويستوطنوا أفضل أماكنها وينعموا بثروة البلاد من أنعام وفضة وذهب وليرتقوا منزلة العرش العالى" وأباح وضع الصور فى المعابد. [1]

وفى عام 1453م – 1459م فتح بلاد الصرب، وفى عام 1460م فتح بلاد الموره، وفى عام 1462م ضم بلاد الأفلام، وفى عام 1463م – 1479م فتح بلاد البانيا وفى عام 1463 – 1465م فتح بلاد البوسنة والهرسك، وفى عام 1476م حارب المجر. ولم ينس الغرب للفاتح فتح القسطنطينية.[2]

مدى تحقيق بايزد الثانى للوصية:

هذه وصية محمد الفاتح لابنه وهو على فراش الموت والتي تعبر أصدق التعبير عن منهجه في الحياة وقيمه ومبادئه التي آمن بها والتي يتمنى من خلفائه من بعده أن يسيروا عليها:

ها أنذا أموت، ولكني غير آسف لأني تارك خلفاً مثلك:

هذه وصية السلطان الفاتح للسلطان بايزيد الثانى بها من المبادئ والمفاهيم والقيم والإدارة، والحنكة التى آمن بها والتى يتمنى من خلفائه من بعده أن يسيروا عليها.

السؤال هنا هل نفذ السلطان بايزيد الثانى وصية السلطان محمد الفاتح.

أما بالنسبة لقول الفاتح لابنه: كن عادلاً صالحاً رحيماً. [3] تولى بايزيد الثانى (886هـ – 918هـ) السلطة فى البلاد، وخلف السلطان محمد الفاتح ولدين أكبرهما السطان بايزيد وثانيهما (جم) المشهور فى المصادر الغربية باسم البرنس "زيزيم" Zizim وكان حاكماً فى القرمان، [4] وينطبق على السلطان بايزيد صفة الرحمة

---

(1) د. محمد حمدان: الجماعات اليهودية فى تركيا وأثرها على المجتمع التركى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، عام2009، ص28.

(2) د. محمد حرب: مرجع سابق، ص57، 58.

(3) عبد السلام عبد العزيز فهمى: مرجع سابق، ص17.

(4) حينما توفى السلطان محمد الفاتح أخفى الصدر الأعظم قرمانى محمد باشا موت السلطان حتى يأتى أكبر أولاده بايزيد لاستلام السلطنة، ولكن لشدة ارتباط القرمانى بـ (جم) وارتباطه به أرسل إليه

والعدل فى أمور، حيث أنه كان ميالاً للسلم أكثر منه إلى الحرب محباً للعلوم الدينية، ولذلك سماه بعضهم مؤرخ الترك بايزيد الصوفى، لكن دعته سياسة الدولة إلى ترك أشغاله السلمية المحضة والاشتغال بالحرب وكانت أول حروبه داخلية، وذلك أن أخاه "جم" لما بلغه خبر موت أبيه سار على الفور إلى مدينة "بورصة" فدخلها عنوة بعد أن عزم ألفى انكشارى، ثم أرسل إلى أخيه يعرض عليه الصلح بشرط تقسيم المملكة بينهما فيختص "جم" بولايات آسيا و "بايزيد" بأوربا فلم يقبل بايزيد بل أتى إليه وقهره بالقرب من مدينة "يكى شهر" [1] وتابعه حتى وصل إلى تخوم البلاد التابعة لمصر.[2]

ومما يدل على تطبيق هذا البند من الوصية حينما عاد من حدود مصر إلى عاصمته طلب منه الإنكشارية أن يبيح لهم نهب مدينة بورصة مجازة لها على قبولها الأمير جم فلم يوافقهم على ذلك، ومن ذكائه ورحمته أنه دفع لهم أموالاً، وأعطى أيضاً الإنكشارية أموالاً خوفاً من حصول شغب منهم.[3]

وأما عن قول الفاتح لـ بايزيد : اعمل على نشر الدين الإسلامي، فإن هذا هو واجب المعلوم على الأرض.، ووسع رقعة البلاد بالجهاد. استطاع بايزيد الثانى أن يحرز نصراً مجرياً على البنادقة فى خليج لبانتو ببلاد اليونان عام 1499م /

سراً يخبره بموت أبيه كى يحضر قبل أخيه الأكبر ويستلم مقاليد الدولة، ولكن لما أذيع الخبر ثار الإنكشارية على الوزير وقتلوه وعثوا فى المدينة سلباً ونهباً وأقاموا ابن السلطان بايزيد الثانى واسمه (كركود) نائباً عاماً عن أبيه لحين حضوره، ووصل بايزيد الثانى القسطنطينية واستلم الحكم وأكرم الانكشارية لحمايتهم منصب السلطنة. للمزيد راجع: محمد فريد بك.

(1) يكى شهر أو ينى شهر: تقع إلى الجنوب من بحيرة أزنيك فى شمال غرب الأناضول، انظر: يلماز أوزوتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، د/ محمود الانصارى، مجلد1، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، استانبول، ص167.

(2) يلماز أوزوتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سلمان د/محمود الأنصارى، مجلد1، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، استانبول، ص167 .

(3) د. إسماعيل ياغى: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، ط1، 1996م، مكتبة العبيكان، ص 52.

905هـ وفى العام التالى استولى على مدينة لبانتو وباستيلاء العثمانيين على مواقع البنادقة فى اليونان، أقام البابا (إسكندر السادس) بناء على طلب البنادقة فى اليونان أقام البابا (إسكندر السادس) بناء على طلب البنادقة حلفاً ضد العثمانيين مكوناً من فرنسا وأسبانيا وتعرض العثمانيون لهجوم الأساطيل الثلاثة: الفرنسى والأسبانى والبابوى واستطاعت الدولة العثمانية أن تعقد صلحاً مع البنادقة. [1] كان بايزيد ميالاً للسلام، ونشطت العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية وأوربا وكانت من قبل مقصورة على البلاد الواقعة على حدودها، ولكنها أقيمت بينهما وبين البابوية وفلورنسا ونابلى وفرنسا وعقد صلحاً مع البنادقة والمجر.[2]

وأما عن قول الفاتح لابنه: "اضمن للمعوزين قوتهم وابذل إكرامك للمستحقين واعمل على نشر الدين الإسلامي، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض.وقدّم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء ولا تفتر في المواظبة عليه"

حدثت معارك بين العثمانيين والمماليك على الحدود الشامية إلا أنها لم تحتدم إلى حد التهديد بحدوث حرب شاملة بينهما وإن كانت قد أسهمت فى أن يخيم شعور بعدم الثقة بينهما الأمر الذى أدى إلى تعثر مفاوضات الصلح سنة 1491م ومع أن السلطان المملوكى "قايتباى" قد ساورته مخاوف من احتمال قيام حرب واسعة بينه وبين العثمانيين سواء لإدراكه ما كان عليه العثمانيون من قوة ولانشغال جزء مهم من قواته فى مواجهة البرتغاليين، إلا أن السلطان العثمانى "بايزيد الثانى" قد بدت له هذه المخاوف، حيث قام بإرسال رسول من قبله إلى

(1) ثريا شاهين: دور الكنيسة فى هدم الدولة العثمانية، ترجمة د. محمد حرب، دار المنار للنشر، ط 1997م، ص 92.

(2) محمد على الصلابى: مرجع سابق، ص157.

السلطان المملوكى سنة 1491م ومعه مفاتيح القلاع التى استولى عليها العثمانيون على الحدود[1] ، وقد لقى هذا الأمر ترحيباً لدى السلطان المملوكى قام بإطلاق سراح الأسرى العثمانيين والممالك فى نفس السنة 1491م ،وظل هذا الصلح سارياً حتى نهاية عهد السلطان بايزيد الثانى عام 1512م وأكد هذا الحدث حرص بايزيد على سياسة السلام مع المسلمين. [2]

أما بالنسبة السلطان لدبلوماسية بايزيد مع الغرب:

استمرت راية الجهاد مرفوعة طيلة عهد السلطان بايزيد، وأدرك الأعداء أنهم لا يستطيعون مواجهة القوات الجهادية فى حرب نظامية يحققون فيها أطماعهم، لهذا لجأوا إلى أسلوب خبيث تستروا به تحت مسمى العلاقات الدبلوماسية لكى ينخروا فى عظام الأمة ويدمروا المجتمع المسلم من الداخل ففى عهد السلطان بايزيد وصل أول سفير روسى إلى (إسلامبول) عام (898هـ / 1492م).[3]

إن وصول السفير الروسى عام (1492م) على عهد دوق موسكو (وايفان) وما تابع ذلك، وما أعطى له ولغيره من حصانة وامتيازات، فتح الباب أمام أعداء الأمة الإسلامية لكشف ضعفها ومعرفة عوراتها والعمل على إفسادها والتآمر عليها بعد تدميرها وإضعاف سلطان العقيدة فى نفوس أبنائها. [4]

---

(1) إسماعيل ياغى: مرجع سابق، ص51، 52.

(2) قيس جواد العزوى: مرجع سابق، ص66.

(3) د. جمال عبد الهادى وآخرون: الدولة العثمانية أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ، دار الوفاء، ط1، عام1994م، ص 49.

(4) د. نبيل عبد الحى: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، مكتبة الطالب الجامعى، ط1، 1988، ص 132.

وفى عهد بايزيد الثانى فى عام (886هـ) استطاع دوق موسكو (إيفان الثالث) أن ينتزع إمارة موسكو من أيدى المسلمين العثمانيين، وبدأ التوسع على حساب الولايات الإسلامية. [1]

لا يعنى ذلك أن السلطان (بايزيد) وقف موقفاً ضعيفاً أمام هذه الظروف ولكن الدولة كانت تمر بظروف صعبة فى محاربتها لإعداء الإسلام على امتداد شبه جزيرة الأناضول وأوربا الشرقية كلها فانشغلت بها. [2]

أما عن وقوف بايزيد الثانى مع مسلمى الأندلس كانت له ظروفه حيث تطورت الأحداث فى شبه الجزيرية الأيبرية فى مطلع العصور الحديثة فأصبح اهتمام الأسبان ينحصر فى توحيد أراضيهم، وانتزاع ما تبقى للمسلمين بها خصوصاً بعدما خضعت لسلطة واحدة بعد زواج إيزابيك ملكة قشتالة وفروياناند ملك أراغوان فاندفعت الممالك الاسبانية المتحدة قبيل سقوط غرناضة فى تصفية الوجود الإسلامى فى كل أسبانيا حتى يفرغوا أنفسهم ويركزوا اهتمامهم على المملكة الإسلامية الوحيدة غرناطة، التى كانت رمزاً للمملكة الإسلامية الذاهبة.[3]

وفرضت أسبانيا أقصى الإجراءات التعسفية على المسلمين فى محاولة لتنصيرهم وتضييق الخناق عليهم حتى يرحلوا من شبه الجزيرة الأيبرية.[4]

نتيجة لذلك لجأ المسلمون – الموريسكيون – إلى القيام بثورات وانتفاضات فى أغلب المدن الأسبانية والتى يوجد بها أقلية مسلمة وخاصة غرناطة وبلنسية وأخمدت تلك الثورات بدون رحمة ولا شفقة من قبل السلطات الأسبانية التى أتخذت وسيلة لتعميق الكرة والحقد للمسلمين، ومن جهة أخرى كان من الطبيعى أن يرنوا الموريسكيون بأنظارهم إلى ملوك المسلمين فى المشرق والمغرب لإنقاذهم

---

(1) د. جمال عبد الهادى، مرجع سابق، ص50.
(2) زيادة أبو غنيمة: جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين، دار الفرقان1 ط1983، ص 86.
(3) د. نبيل عبد الحى: مرجع سابق، ص142.
(4) المرجع نفسه، ص146.

وتكررت دعوات وفودهم ورسائلهم إليهم للعمل على أنقاذهم مما يعانونه من ظلم [1] وخاصة من قبل رجال الكنيسة ودواوين التحقيق التى عاثت فى الأرض فساد وأحلت لنفسها كل أنواع العقوبات وتسليطها عليهم[2]

وكانت أخبار الأندلس قد وصلت إلى المشرق فارتج لها العالم الإسلامى وبعث الملك الأشرف بدخول إلى الباب وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بالحرية فى حين أن أبناء دينه فى المدن الأسبانية يعانون أشد أنواع الظلم وقد هدد بإتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه الرعايا المسيحيين، إذ لم يكف ملك قشتالة وأراغون عن هذا الاعتداء وترحيل المسلمين عن أراضيهم وعدم التعرض لهم ورد ما أخذ من أراضيهم ولم يستجيب البابا والملكان الكاثوليكيان لهذا التهديد من قبل الملك الأشرف ومارسوا خطتهم فى تصفية الوجود الإسلامى فى الأندلس [3] وجددت رسائل الاستنجاد لدى السلطان العثمانى بايزيد الثانى فوصلته هذه الرسالة: (الحضرة العلية، وصل الله سعادتها وأعلى كلمتها، ومهد أقطارها وأعز أنصارها وأذل أعداءها حضرة مولانا وعمدة ديننا ودنيانا، السلطان الملك الناصر ناصر الدين والدنيا سلطان الإسلام والمسلمين، وقامع أعداء الله الكافرين كهف الإسلام وناصر دين نبينا محمد عليه السلام محبى العدل ومنصف المظلوم ممن ظلم ملك العرب والعجم والترك والديلم ظل الله فى أرضه، القائم بسنته وفرضه ملك البرين وسلطان البحرين حامى ومانع الكفار مولانا عمدتنا وكهفنا وغيثنا لازال إلى ملكه موفور الأنصار مقروناً بالانتصار مخلد المآثر والأثار مشهور المعالى والفخار مستأثراً من الحسنات بما يضاعف به الأجر الجزيل فى الدار الآخرة والثناء الجميل والنصر فى هذه الدار ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد ومجرد على أعداء الدين من

---

(1) قيس جواد العزوى: ص61.
(2) المرجع السابق: ص63.
(3) عبد السلام عبد العزيز فهمى، ص192.

بأسها ما يروى صدور السحر والصفاح وألسنة السلام بأذلة نفائس الذخائر فى المواطن التى تألف فيها الأخاير مفارقته الأرواح للأجساد سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد وكانت ضمن الرسالة أبيات قصيدة يمدح صاحبها فيها الدولة العثمانية والسلطان بايزيد ويدعو للدولة بدوام البقاء.[1]

كانت هذه رسالة الاستنصار التى بعث بها المسلمون فى الأندلس؛ لإنقاذ الموقف هناك وكان السلطان بايزيد يعانى من العوائق التى تمنعه من إرسال المجاهدين، بالإضافة إلى مشكلة النزاع على العرض مع الأمير جم، وما أثار ذلك من مشاكل مع البابوية فى روما وبعض الدول الأوروبية وهجوم البولنديين على مولدافيا والحرب فى ترانسلفانيا والمجر والبندقية وتكوين التحالف الصليبى الجديد ضد الدولة العثمانية من البابا جويلس الثانى وجمهورية البندقية والمجر وفرنسا وما أسف عنه هذا التحالف من توجيه القوة العثمانية لتلك المناطق، ومع ذلك قام السلطان بايزيد بتقديم المساعدة وتعاهد مع السلطان المملوكى الأشرف لتوحيد الجهود من أجل مساعدة غرناطة ووقعا اتفاقاً بموجبه يرسل السلطان بايزيد أسطولاً على سواحل صقلية باعتبارها تابعة لمملكة أسبانيا وأن يجهز السلطان المملوكى حملات أخرى من ناحية أفريقيا وبالفعل أرسل السلطان بايزيد أسطولاً عثمانياً تحول إلى الشواطئ الأسبانية وقد أعطى قيادته إلى كمال رايس الذى أدخل الفزع والخوف والرعب فى الأساطيل النصرانية فى أواخر القرن الخامس عشر، كما شجع السلطان بايزيد المجاهدين فى البحر بإبداء اهتمامه وعطفه عليهم، وكانوا المجاهدون العثمانيون قد بدأوا فى التحرك لنجدة إخوانهم المسلمين. وكانت تصرفات (جم) المشينة سبباً أعاق حركة التوسع الإقليمى وعرقلت السلطان بايزيد عن العمل الخلاق، وأصبح اهتمام السلطان منصباً على تعقب أخبار أخيه والعمل على التخلص منه بكل الوسائل.

---

(1) المرجع السابق، ص197، 198.

وأما عن قوله لابنه: وسِّع رقعة البلاد بالجهاد:

إن السلاطين العثمانيين الأوائل قاموا بتوسيع رقعة الدولة بالجهاد وبسطوا الأمن وقمعوا الأخطار التي هددت دولتهم، وعملوا على تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لايستطيع الأعداء أن يظفروا بثغرة أو ينتهكوا محرماً ويسفكوا دماً مسلماً أو معاهداً، وعمل السلطان محمد ومن قبله على إعداد الأمة إعداداً جهادياً وقام بواجبه في جهاد الكفرة المعاندين للإسلام حتى يسلموا أو يدخلوا في ذمة المسلمين: ولقد صبغ المجتمع العثماني بالصبغة الإسلامية الجهادية الدعوية، وكان أفراد الجيش يعدون للحياة الجهادية العنيفة منذ نعومة أظافرهم إعداداً دقيقاً كاملاً، ولقد حققت الجيوش العثمانية انتصارات رفيعة في الساحات الأوروبية[1]، لقد (حققت الدولة العثمانية إلى عهد سليمان القانوني آمالاً عظيمة كان يستهدفها المسلمون منذ تسعة قرون برفع الراية المحمدية على قلاع كثير من العواصم الكبرى في أوروبا وإخضاع كثير من الممالك والإمارات للحكومة الإسلامية، وأخذ ظل الإسلام يمتد حتى أوشكت جيوش المسلمين في شرق أوروبا وغربها أن تلتقي في الأرض الكبيرة)[2].

ومن المؤتمر السابع لوزارة خارجية الدول الإسلامية في إسطنبول ألقى المجاهد البروفسور المهندس نجم الدين أربكان خطاباً استرجع فيه صدى الماضي الإسلامي الذي مثلته الدولة العثمانية فقال: (... إن هذا القصر الذي شاء الله أن يعقد فيه هذا المؤتمر الإسلامي الكبير وقد نقشت على بابه كلمة الإسلام الجامعة: (لا إله إلا الله)... هو قصر السلطان محمد الفاتح الذي بناه عقب فتح اسطنبول ... كيف لايكون هذا المكان تاريخياً ومنه كانت تدبر شؤون العالم الإسلامي ردحاً من الزمن؟ وكيف لايكون لتاريخنا ومنه كانت تنطلق جيوش

(1) انظر: المسألة الشرقية، ص60.
(2) انظر: المسألة الشرقية، ص63.

المسلمين إلى جميع أنحاء الدنيا، مجاهدة في سبيل الله، تنشر النور والهداية والعدل أينما حلت وحيثما ضربت ... كيف لايكون تاريخياً وفوق هذا الحجر الذي يرتكز عليه الميكروفون كانت تنصب رايات الجيوش الإسلامية، المنطقة للذب عن ديار المسلمين جميعاً ... وأذكر على سبيل المثال لا الحصر: إن قرار إرسال الأسطول الإسلامي للحيلولة دون وقوع كل من إندونيسيا والفلبين في براثن الاستعمار الهولندي اتخذ من هذا المكان، وفيه أيضاً اتخذت قرارات إرسال الجيوش والأساطيل الإسلامية لحماية شمال إفريقيا من الغزاة الطامعين.

وفوق هذا كله فإن هذا البناء التاريخي يضم بين جدرانه لواء الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وبردته المباركة وسيوفه وكثيراً من آثاره الشريفة ...)[1].

لقد كانت الدولة تعطي لمبدأ الجهاد أهمية قصوى ولذلك أعدت شعبها وجيشها لتحقيق هذا المبدأ الرباني، وحققت من خلاله ثمرات مهمة للإسلام والمسلمين من أهمها:

- إعزاز المسلمين وإذلال الكافرين.
- دخول الناس في دين الله أفواجا[2].
- إسعاد الناس بنور الإسلام وعدله ورحمته.

لقد انصبغت الدولة العثمانية بالروح الجهادية ووضعت أهدافاً لها من أهمها:

- إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض.
- دفع عدوان الكافرين.
- إزاحة الظلم عن الناس.
- نشر الدعوة الإسلامية بين البشر[3].

---

(1) انظر: المسألة الشرقية، ص63–65.

(2) علي محمد الصلابي، فقه التمكين في القرآن الكريم، ص365 – 369.

(3) المصدر السابق نفسه، ص366 – 367.

اهتم بايزيد بإنشاء المبانى العامة وفعل الخيرات، فبنى الجوامع والمدارس والعمارات ودور الضيافة والتكايا والزوايا والمستشفيات للمرضى والحمامات والجسور[1] ورتب للمفتى ومن فى رتبته من العلماء فى زمنه كل عام عشرة آلاف عثمانى، ولكل واحد من مدرس المدارس السلطانية ما بين سبعة آلاف وألفى عثمانى، وكذلك رتب لمشايخ الطرق الصوفية ومريديهم، ولأهل الزوايا كل واحد على قد رتبته، وصار ذلك أمراً جارياً ومستمراً، وكان يحب أهل الحرمين الشريفين – مكة والمدينة – ويكرمهم بالعطايا. [2]

فى حادثة زلازل القسطنطينية فى زمنه كلف السلطان 15 ألفاً من العمال بإصلاح ما تهدم، لأنه كان تخرب سبعين ألف بيت ومائة وتسعة جوامع، وجانب من القصور وأسوار المدينة، وعطلت مجارى المياه، وصعد البحر إلى البر فكانت أمواجه تدفعه فوق الأسوار وصار ذلك الزلزال لمدة 45 يوماً.[3]

وأما قوله: ولاتستخدم الأشخاص الذي لا يهتمون بأمر الدين ولايجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش:

لذلك اهتم سلاطين الدولة العثمانية بإنشاء جامعات لتخريج قادة للجيش وللوظائف المهمة في الدولة ووضعوا منهجاً تربوياً لإعداد القادة وخصوصاً في داخل الجيوش وحرصوا على أن يختاروا لمناصب الدولة الأمناء والأكفاء أصحاب العقول والنهي والتقى، وأسندوا إليهم الولايات والقيادات في الجيوش ومناصب القضاة، وباعدوا عنهم كل من لايهتم بأمر الدين، ويجتنب الكبائر والفواحش هكذا كان السلاطين الأوائل.

---

(1) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، مطابع جامعة القاهرة، عام1980م، ج2، ص 718.

(2) قيس جواد العزوى: الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، مركز دراسات الإسلام والعالم، ط1، 1994م، ص 52.

(3) د. على حسونه: تاريخ الدولة العثمانية، المكتب الإسلامى3ط1994م، ص 86.

إن السلاطين العثمانيين الأوائل ساروا على منهج أهل السنة والجماعة، وعرفوا خطورة البدع والاقتراب من أصحابها، واكتفوا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع الأمة واجتهادات العلماء الراسخين.

ولذلك كانت وصية السلطان محمد – رحمه الله – لمن بعده: (جانب البدع المفسدة وباعد الذين يحرضونك عليها).

وقوله: ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو أو أكثر من قدر اللزوم فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك:

إن هذه الوصية ترشد ولي عهد السلطان محمد الفاتح إلى الاعتدال والتوسط في الاستهلاك وهذه الوصية فهم لأمر الله ورسوله بالقصد والتوسط ولقد أنزل الله كثيراً من الآيات التي تمتدح النفقة وذم ما سواها من البخل والشح والتبذير والإسراف والترف.

إن السلطان محمداً الفاتح يرى وجوب ابتعاد الحاكم ودولته عن الإسراف لأن فيه معصية الله ورسوله.

إن الدولة العثمانية كدولة مجاهدة كانت لها خطة اقتصادية لتدبير موارد الأمة في ظروف الحرب لتأمين احتياجات جيشها، وتوفير الحاجات الضرورية لشعبها من السلع والخدمات، ولذلك كان السلاطين الأوائل في الدولة العثمانية يمنعون الإسراف والتبذير في القطاع الحكومي والقطاع الخاص وكانت الدولة ترشد الاستهلاك العام والخاص حتى لا تقع الأمة في أزمات اقتصادية خلال الحرب التي تسبب في هزائم الأمم، فكانت الدولة بالتعاون مع قطاعات أخرى حكومية وشعبية تقوم بما يلي:

1 –توفير الأموال اللازمة للإنفاق على الحرب، وعلى ضروريات المجتمع من الغذاء والدواء والحماية.

2 –توفير الإمدادات اللازمة خلال الحروب والأزمات.

3 –تعويض النقص من مخزون السلع والأجهزة الحيوية من الإنتاج المحلي بقدر الإمكان.

4 –السيطرة على التضخم في الأسعار الذي يصاحب عادة حالات الحرب.

5 –التوزيع العادل للسلع والخدمات الضرورية بما يؤمن حد الكفاية لكل فئات المجتمع[1].

إن الدول التي تقع في الترف واللهو وتصرف أموالها، في غير محلها مآلها إلى الهلاك والدمار، ولقد أدى الترف إلى انغماس بعض السلاطين المتأخرين في حياة الفسق واللهو بحيث يقضون أوقاتهم في الملذات وبين الحريم، وقد أدى ذلك إلى الابتعاد عن أمور الحكم وتركها للصدور العظام وللحريم، فانعكس ذلك على ضعف السلاطين، وعدم قدرتهم على تسيير أمور الدولة وقيادة الجيش، مما أثر على أوضاع الدولة وأدى إلى ضعفها ثم اضمحلالها وضياعها فيما بعد[2].

كان بايزيد عالماً فى العلوم العربية والإسلامية، كما كان عالماً فى الفلك مهتماً بالأدب مكرماً للشعراء والعلماء، وخصص مرتبات أكثر من ثلاثين شاعراً.[3]

واعمل على تعزيز هذا الدين وتوفير أهله:

إن تعزيز هذا الدين وإقامته في الأرض يحقق نتائج طيبة في حياة الأمة والدولة، ومن هذه النتائج تهذيب النفس من الشرور والآثام وترويضها على الخير.

لذا كان الوازع الديني ثمرة من ثمار تعزيز هذا الدين ويكون مانعاً من ارتكاب الجريمة ومحاسبة النفس عليها، ويكون ماثلاً أمام العين مما يجعل النفس تخشى الله وتتقيه دائماً وأبداً.

كما أن تعزيز الدين وإقامة الشرع يحقق المساواة بين الراعي والرعية في

---

(1) انظر: اقتصاديات الحرب في الإسلام، ص339.

(2) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي، ص94.

(3) القرمانى: تاريخ سلاطين آل عثمان، دار البصائر، دمشق، سوريا، ط1، 1985م، ص 142.

الحقوق والواجبات، وتنشر العدالة في الدولة الإسلامية لجميع ساكنيها.

كما أن في تطبيق الشريعة الإسلامية نزول البركة، وتوالي النعم، إذ ليس هناك طريق مستقل لحسن الجزاء في الآخرة وطريق مستقل لصلاح الحياة في الدنيا، إنما هو طريق واحد تصلح به الدنيا والآخرة، وفي تطبيقها بركات في النفوس وبركات في المشاعر وبركات في طيبات الحياة، فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به.

ومن نتائج تطبيقها بناء مجتمع إسلامي معتز بدينه وعقيدته بما إلتزمه من سلوك مصدره كتاب الله وسُنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ففيهما المواد اللازمة لبناء الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة والدولة المسلمة.

كما أن من النتائج حفز الهمم، وبعث النفوس إلى الأخذ بأسباب العلم والحضارة والرقي والتقدم لما تضمنته تلك الشريعة من الدعوة إلى الحياة كما أنها تتضمن نبذ عن الحياة الحضارية لمجتمعات الرذيلة أياً كانت وأينما وجدت[1].

حذار حذارِ لايغرنك المال ولا الجند وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك، وإياك أن تميل إلى أي عمل يخالف أحكام الشريعة فإن الدين غايتنا والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا:

إن السلطان محمداً الفاتح يحذر وليه من بعده أن يغتر بالمال أو الجند، ويبين له خطورة إبعاد العلماء والفقهاء عن الحاكم، كما يحذره من أن يخالف أحكام الشريعة، لأن ذلك يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا وهلاكاً وعذاباً في الآخرة وإن آثار الابتعاد عن شرع الله وأحكامه تبدو على حياة الأمة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

كما يترتب على ذلك توقف حركة الفتوح الإسلامية وتحرم شعوب كثيرة من

(1) انظر: تطبيق الشريعة الإسلامية للطريقي، ج2، 60، 61.

سعادتها في الدنيا والآخرة بسبب تضييع أحكام الشريعة وارتكاب ما يخالفها من أفعال قبيحة وتحدث الحروب فيما بين المسلمين وتكثر الاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض كما يقوى الأعداء وتشتد شوكتهم يغيب نصر الله على الإسلام والمسلمين ويحرموا من التمكين ويصبحوا في خوف وفزع وجوع، وتضيع المدن والقرى ويتسلط عليها الأعداء وتتوالى المصائب وهذا ما حدث في تاريخ الدولة العثمانية المتأخر.

إن السر في قوة العثمانيين وعزهم وشرفهم كامنة في طاعة الله وتنفيذ أحكامه، والالتزام بشريعته والجهاد في سبيله والدعوة إليه ولذلك قال محمد الفاتح لابنه: (فإن الدين غايتنا والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا).

كان محمد الفاتح وهو يمثل إسلامه وعقيدته ومنهجه الإسلامي في الحرب على تعاليم الصديق أبي بكر رضي الله عنه في معاملته للروم (لاتخونوا، ولا تغلو ولاتغدروا، ولاتمثلوا، ولاتقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولاتعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له... اندفعوا باسم الله) [1].

لقد دخل محمد الفاتح إلى قلب العاصمة البيزنطية وأعطى عالم الغرب النصراني دروساً في العدالة والرحمة وأصبحت معلماً من معالم التاريخ العثماني.

لقد سارت الدولة العثمانية على المنهج الإسلامي، فأخذت منه العدالة والرحمة بالرعايا الذين حكموهم.

إن العدالة والرحمة الإسلامية هما اللذان مكنا للعثمانيين في أوروبا، وبالعدل والرحمة خرجت هذه الأمم من همجيتها وقسوتها وعرفت المساواة والإنصاف، ويكفي أن تعلم أن استرقاق الطوائف بأشنع صورة كان نظاماً دولياً متعاهداً عليه في أوروبا الوسطى والجنوبية إلى أن قضى عليه العثمانيون. وكانت

(1) انظر: المصدر السابق، ص106.

هناك عهود دولية بين الملداف والبولونيين والمجر لتسليم كل فلاح يرحل من مزرعة سيده من (البويار) إلى أحد هذه الأوطان، وكانت المزارع تباع بما عليها من الحيوانات والفلاحين.

جاء العثمانيون إلى أوروبا يحملون بين صدورهم عاطفة الرحمة كما أرادها صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم، ولم يكن الأتراك أكثر عدة ولا عدداً من أية أمة من الأمم التي سادوها، فوصولا على رؤوسهم جميعاً إلى فيينا، تمهد لهم الرحمة صعاب الجبال والبحار والوهاد، كما مهدت للعرب قبلهم أفريقيا وآسيا) [1].

إن محمد الفاتح سار على منهج الرحمة والعدالة وأوصى أحفاده من بعده أن يلتزموا نفس المنهج الذي يمثل حقيقة الإسلام.

وابسط على رعيتك حمايتك دون تمييز:

هذا ما قام به السلطان محمد بنفسه حيث حرص على حماية كل رعايا الدولة سواء أكانوا مسلمين أو نصارى.

ومن القصص اللطيفة في هذا المعنى أنه كان على أهل جزيرة خيوس دَيْن قدره أربعون ألف دوقة لتاجر من تجار (غلطة) يدعى فرانسسكوا درا بيريو، ولما عجز هذا الدائن عن استرداد دينه من أهل الجزيرة رأى السلطان الفاتح أن يقوم هو بهذا الأمر بوصف أن هذا التاجر من رعاياه الذين يجب على الدولة العثمانية حمايتهم واستيفاء حقوقهم وأرسل إلى الجزيرة عدة سفن بقيادة حمزة باشا إلا أن أهالي جزيرة خيوس قتلوا بعض الجنود ورفضوا الانقياد ودفع الحقوق، فقال محمد الفاتح للتاجر درا بيريو (أنا الذي سيتحمل دينك من أهل الجزيرة وسأطلب به مضاعفاً ثمناً لدم الجنود الذين هلكوا)[2].

وسيّر السلطان إلى هذه الجزيرة أسطولاً وقام هو بقيادة الجيوش بنفسه إلى الجزر القريبة منها وفتح أينوس بغير حرب ولا قتال، وبادرت جزيرتا أيمبروس وساموتراس إلى الاستسلام وفتحتا أبوابهما على مصاريعها للعثمانيين، فاضطرت

(1) انظر: المسألة الشرقية، ص107.

(2) انظر: محمد الفاتح، ص216.

جزيرة خيوس إلى دفع ما عليها من دين للتاجر الجنوي ودفعت للسلطان جزية سنوية قدرها ستة آلاف دوقة، ودفعت له فوق ذلك تعويضاً للسفن العثمانية التي غرقت[1]. إن حماية الرعية والحفاظ على حقوقهم من واجبات الدولة الإسلامية.

كان السلطان محمد الفاتح في حروبه لاينسى أنه داعية إلى الإسلام، ولذلك كان يشجع قواده وجنوده على نشر الدين والعقيدة والإسلام ويثني على القاعدة الذين تفتح المدن على أيديهم، فعندما أمر قائده عمر بن طرخان أن يزحف بجيشه إلى أثينا واستولى عليها وضمها إلى الدولة العثمانية، وتحرك القائد عمر بجيشه واضطرت المدينة للتسليم وزار السلطان الفاتح المدينة بعد عامين من فتحها قال: (ما أعظم ما يديه به الإسلام لابن طرخان).

لقد اهتمت الدولة العثمانية بالدعوة إلى الله وتركت بصماتها قوية واضحة في مجال نشر الدعوة في أوروبا، فعلى امتداد قرون وتعاقب عصور ودهور ظلت جماعات إسلامية تقاوم شتى أنواع الضغوط التي بذلت لتحويلها إلى المسيحية، ولا زالت هذه الأقليات الإسلامية تعيش إلى يومنا هذا في بلغاريا ورومانيا وألبانيا واليونان ويوغسلافيا يصل أعدادها إلى الملايين من البشر [2]، وهذا يرجع إلى فضل الله على تلك الشعوب ثم إلى سياسة السلاطين العثمانيين الذين يحرصون على هداية الناس ودخولهم في الإسلام.

إن سلاطين الدولة العثمانية قبل زمن محمد الفاتح وبعده نشأوا نشأة إسلامية خالصة، مشوبة بإيمان عميق، متوجهة إلى أهداف عقائدية صريحة، خاضوا من أجلها حروباً دينية شديدة، وكانت أجمل عبارة على ألسنة العثمانيين عند التنادي للجهاد الزحف إلى الفتوحات إما غازٍ وإما شهيد، فمنذ بداية تأسيسها أطلق على زعيمها لقب الغازي – أي المجاهد في سبيل الله – وظل هذا اللقب الرفيع يتقدم كل الألقاب والنعوت بالنسبة للسلاطين العظام، وكانت غاية الدولة

(1) المصدر السابق نفسه، ص218.

(2) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية، د. عبدالعزيز الشناوي1/29، 30.

العثمانية (الدفاع عن الإسلام ورفع رايته على الأنام).

لذلك صبغت الدولة، شعباً وسلطاناً، حكومة وجيشاً، ثقافة وتشريعاً، نهجاً وضميراً، هدفاً ورسالة، بصبغة إسلامية خالصة منذ النشأة وعلى مدى سبعة قرون، لقد كان اهتمام السلاطين بأمر الدين عظيماً وقدموه على كل شيء، وواظبوا عليه إلى أقصى حدود، وأكدوا أنهم لاينتسبون إلا للإسلام وتراثه وحضارته؟ وكان الوطن عندهم هو كل أرض يسكنها المسلمون، وكلمة الملة تعني الأمة والدين معاً، وذلك كان هدف المنهج التربوي في جميع المدارس والجامعات والمعاهد، تصاغ به نفوس الناشئة منذ بداية تعليمهم في الكتاتيب وجميع المسلمين كانوا يسجلون في دوائر النفوس – سجلات المواليد – وفي التذاكر العثمانية – بطاقات الهوية – كمسلمين فحسب، دون أن يذكر إلى جانب ذلك فيما إذا كانوا من الأتراك، أو من العرب أو من الشراكسة أو الألبان أو الأكراد، إن مايهم الدولة كان ينحصر في ملتهم في ديانتهم؛ إنهم مسلمون وكفى، واعتبر العثمانيون أي مقاتل مسلم جاهد في سبيل الله ميراثهم البطولي وخليفتهم التاريخية، وإن تباينت الأنساب، وتباعدت الأزمان؛ من ذلك المجاهد (عبدالله البطال) الذي استشهد في معركة أكرنيون في آسيا الصغرى عام 122 للهجرة، زمن الدولة الأموية والذي يقول عنه الطبري وهو يعلق على حوادث سنة 122هـ: (وفيها قتل عبدالله البطال في جماعة من المسلمين بأرض الروم)[1].

يعتبره العثمانيون بطلهم القومي وبين (عبدالله البطال) العربي وقيام الدولة العثمانية ما يقرب من سبعمائة عام، لقد كان تاريخ العثمانيين وأبطال العثمانيين، نسب الإسلام، وتاريخ الإسلام، ومجاهدي الإسلام[2].

إن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يلقبون بكثير من الألقاب والنعوت التي

(1) تاريخ الطبري، الجزء الثاني حوادث سنة 122هـ.
(2) المسألة الشرقية، ص57.

تبين أن هدفهم الأكبر ومقصدهم الأسمى هو خدمة دين الله تعالى، فكانوا يلقبون بمثل (سلطان الغزاة، والمجاهدين، وخادم الحرمين الشريفين، وخليفة المسلمين)[1].

واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد:

إن السلاطين العثمانيين كانوا يرون أن الدولة هي الهيئة التنفيذية والمعبرة عن رأي الأمة، والمكلفة بحماية مصالحها، فمسؤولية الدولة ليست خاصة بالأمن والدفاع وإنما هي مسؤولة عن رعاية المصالح الاجتماعية وحماية بيت المال من الإسراف والتبذير والمحافظة على مصادر وموارد بيت المال وأهم موارد بيت المال هي:

- جمع الزكاة المفروضة وتوزيعها في مصارفها المشروعة.
- ترتيب الخراج على أملاك الدولة المعمورة وتحصيل عائداته للإنفاق العام على الجيش وتنمية المرافق العامة.
- جباية الجزية على المعاهدين مقابل إعفائهم من القتال مع المسلمين.
- تحصيل عشور التجارة على الواردات من خارج نطاق الدولة العثمانية.
- التوظيف بقدر الحاجة على أفراد الأمة سواء كان تطوعياً أو إلزامياً لإنفاقها في دروب الجهاد وسائر المصالح العامة طبقاً لقاعدة المصالح المرسلة.
- تشغيل الموارد وحمايتها كالحمى والمناجم وإحياء الموات، وتحصيل أنصبة الدولة منها لاستخدامها في مجالات الإنفاق الحكومي[2].

وعلى الدولة أن تراقب النشاط الاقتصادي وتحرص على تطبيق أحكام الشرعية فيه، وتشمل:

- ضبط المقاييس والمواصفات المعيارية التي يحتاجها الناس في أسواقهم مثل المكاييل والموازين، ومواصفات البضائع الجيدة.
- منع الغش، وإبطال العقود الفاسدة في البيع والعمل (الاستضاع).

---

(1) المرجع السابق نفسه، ص66.

(2) انظر: اقتصاديات الحرب في الإسلام، د. غازي التمام، ص137.

– الأمر بالمعروف في المعاملات كالصدق والعدل والوفاء في المعاملة كالبيع والشراء، والنهي عن المنكر في البيوع كالحلف الكاذب على السلعة.

– منع تلقي الركبان والمناجشة في البيع والتدليس والغبن الفاحش وغيره من الأساليب التي تؤدي إلى العداوة والبغضاء بين الناس.

– منع ترويج المحرمات كالخمر والخنزير وآلات القمار والميسر، ووسائل اللهو المؤدي إلى تمويت القلوب.

– منع مظاهر الترف والإسراف، والتشجيع على نبذها[1].

كان المطعم الخيري بجامع السليمانية تبلغ ميزانيته عام 1586م ما يعادل (10) عشرة ملايين دولار أمريكي إلا قليلاً[2].

وهكذا كانت سياسة الدولة على مستوى السلاطين والأمراء والوزراء تضمن للمعوزين قوتهم وتكرم المستحقين بالإكرام.

وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة فعظم جانبهم وشجعهم وإذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال ... :

لقد اهتم السلطان محمد الفاتح بترتيب وظائف العلماء في الجوامع الكبرى ووضع لها تقاليد سابقة ونظمها بمرسوم خاص. وأهم الوظائف في المساجد الكبرى: الخطيب والإمام، والقيم والمؤذن، ويقوم المرشحون لهذه الوظائف بطلب العلم في المدارس الدينية الكبيرة التي كثيراً ما كان السلاطين والوزراء يتنافسون على تشييدها تنافساً نبيلاً، ويخضع الموظفون الدينيون في العاصمة لسلطة المفتي مباشرة وكان يتوب عنه في الولايات الكبرى قضاة العسكر؛ أما في الولايات الصغرى فكان الإمام يقوم بكافة المهام الدينية وخاصة في الأرياف.

(1) انظر: اقتصاديات الحرب في الإسلام، د. غازي التمام، ص138.

(2) المصادر السابق نفسه.

وكانت المدارس التي تعد الموظفين الدينيين يوجد بها ثلاثة فئات من طلبة العلم: فـ(الصوفتا) وهي أدناها، تليها فئة المعيدين الذي يحمل الطالب عند التخرج منها لقب (دانشمند) أو عالم، أما الفئة الأعلى فهي منصب المدرس، وبلغ عدد الصوفتا في عهد السلطان مراد الثاني 90 ألفاً، وكانوا كثيراً ما يكون لهم أثر في شؤون الدولة[1].

وقد استحدث محمد الفاتح لقب شيخ الإسلام وهو الذي يترأس الهيئة الإسلامية في الدولة، وهو يلي السلطان في الأهمية، وكان التشريع والمحاكم والمدارس الملحقة بالمساجد وممتلكات الأوقاف الواسعة جميعها خاضعة له، كما كان خاضعاً له القضاة الشرعيون والقضاة العسكريون والمفتون، وكانت الأولوية في بداية نشأة الدولة العثمانية لقاضي عسكر الذي رافق الجيش المحارب، ثم صارت للمفتي رئيس العلماء والفقهاء في عهد السلطان سليمان القانوني وأصبح المفتي هو شيخ الإسلام نفسه، وحرص السلاطين على تدعيم سلطة شيخ الإسلام فكانوا يلجئون إلى استغلال سلطته والإفادة منها كلما تعرضوا لأزمة خطيرة، وبلغ من ازدياد سلطة شيخ الإسلام أنه كان يحق إصدار فتوى بعزل السلطان نفسه[2].

كما كانت الدولة لا تقدم على حرب دون صدور فتوى منه يقرر فيها أن أهداف هذه الحرب لا تتعارض مع الدين، وكانت أحكام المفتي نهائية لا معقب عليها وكان الجهاز الإسلامي المنبث في جسم الدولة يضم الأشراف وهم الذين ينحدرون من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان نقيب الأشراف يحتل مكانة عالية في المجتمع[3].

لقد قامت الدولة العثمانية بتأسيس جهاز للهيئة الدينية الإسلامية وحرصت

(1) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، ص405.
(2) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي، الحديث، ص89.
(3) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي، الحديث، ص89.

على أن تمتد جذورها في أوساط الشعب والجيش وكل رعايا الدولة المسلمين، وقد أصبح أفراد هذه الهيئة يتولون مناصب القضاء والإفتاء وتدريس علوم الدين واللغة والمشاركة على نحو ما في إدارة الأوقاف الخيرية وإقامة الشعائر الدينية والإشراف على المساجد والمؤسسات الدينية والخيرية مثل التكايا والأسبلة وغيرها. وكان أفراد من الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة يصحبون شتى فرق الجيش إلى ميادين القتال ويقومون قبل المعركة بتسخين الجنود روحياً ابتغاء رفع روحهم المعنوية، ويضربون للجنود أروع الأمثلة على استبسال الجنود المسلمين في صدر الإسلام حين انطلقوا على موجات بشرية متلاحقة من قلب شبه الجزيرة العربية واتجهوا شرقاً إلى العراق وفارس، وشمالاً إلى بلاد الشام، واتجهوا إلى مصر ثم شمال إفريقية، وعبروا البحر المتوسط إلى الأندلس. ويذكرون لهم الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تدور حول الجهاد الديني والفوز بإحدى الحسنيين: النصر أو الاستشهاد، ويشرحون لهم مواقف الصحابة واسترخاصهم الموت حتى استطاعت الجيوش الإسلامية وقتذاك أن تدك معاقل دولة الفرس والدولة البيزنطية، كما كان رجال الهيئة الدينية الإسلامية يؤمون الجنود في صلاة الخوف وهم في ساحات القتال ... [1].

وكان العلماء وعلى رأسهم شيخ الإسلام يعتمدون على الشريعة الإسلامية عند الخلاف مع السلطان أو الصدر الأعظم ولا يسمحون لهم أن ينحرفوا عن مبادئ الشريعة، وكان الشعب يقف معهم ويلتحم معهم في القضايا المصيرية؛ لأن العلماء كانوا يملكون القوتين الروحية والأدبية اللتين تمثلتا في ممارسة أعمال القضاء والإفتاء والإمامة والإشراف على المساجد وإقامة الشعائر الدينية وإدارة المؤسسات الخيرية، ونشاطهم في مجالات التعليم بشتى درجاته وعلى قمتها الدراسات العليا في الكليات حيث كانوا يقومون بتدريس علوم الشريعة الإسلامية

(1) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية: 1/455، 456.

وأصول الدين، ولذلك كانوا أكثر التفافاً برجل الشارع وأكثر تفاهماً وتعاطفاً وتجاوباً مع الأهلين[1].

(1) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية: 1/466.

الخاتمة

هذا البحث يتحدث عن وصية السلطان محمد الفاتح لابنه وهو على فراش الموت والتي تعبر أصدق التعبير عن منهجه في الحياة وقيمه ومبادئه التي آمن بها والتي يتمنى من خلفائه من بعده أن يسيروا عليها. لقد قام محمد الفاتح بهذه المبادئ مع النصارى الذين أصبحوا من رعايا دولته وعندما دخل القسطنطينية فاتحاً كان يحارب حرب الإسلام (التي لا تهتك فيها حرمة، ولا يقتل فيه صبي ولا شيخ ولا إمرأة، ولا يحرق فيها زرع، ولا يتلف فيها ضرع، ولا يمثل فيها إنسان، ولا تصيب إلا المقاتلين الذين يحملون السلاح في وجه المسلمين)[1].

ولد السلطان بايزيد في القرن التاسع الهجري عاش بين عامي 1447 و 1512، وكان أكبر أولاد أبيه السلطان محمد الثانى . وقد دربه أبيه على الحكم فحكم فى عهد أبيه مقاطعة أماسيا ، والسلطان بايزيد الثاني بن محمد الفاتح هو ثامن السلاطين العثمانيين ، وتقلد الحكم عام 1481 ، وكان يؤلف الشعر ، ويؤلف الموسيقى ويتقن فن الخط العربي. وفى هذا البحث تحدثت عن وصية السلطان العثماني السابع في سلسلة آل عثمان والذي كان يلقب بالفاتح وأبي الخيرات لابنه من بعده. حكم السلطان محمد الفاتح ما يقرب من ثلاثين عاماً كانت خيراً وعزة للمسلمين، وامتاز بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل، كما أنه فاق أقرانه منذ حداثته في كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء، وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ، مما ساعده فيما بعد على إبراز شخصيته في الإدارة وميادين القتال، حتى أنه اشتهر أخيراً في التاريخ بلقب محمد الفاتح، لفتحه القسطنطينية. وانتهج المنهج الذي سار عليه والده وأجداده في الفتوحات، وهو بصدد وصيته لابنه يريد أن ينتهج هذا النهج العظيم.

(1) انظر: المسألة الشرقية، محمود ثابت الشاذلي، ج1، 104.

قائمة المصادر والمراجع

1. د. إسماعيل ياغى: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، مكتبة العبيكان، ط1، 1996م.
2. ثريا شاهين: دور الكنيسة فى هدم الدولة العثمانية، ترجمة د. محمد حرب، دار المنار للنشر، ط1، 1997م.
3. د. جمال عب الهادى وآخرون: الدولة العثمانية أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ، دار الوفاء، ط1، عام 1994م.
4. د. زكريا سليمان بيومى: قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، ط 1، 1991م، عالم المعرفة، القاهرة.
5. زيادة أبو غنيمة: جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين، دار الفرقان، ط 1، 1983.
6. الطبرى، تاريخ الطبري، الجزء الثاني حوادث سنة 122هـ.
7. عبد السلام عبد العزيز فهمى: السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم، دار القلم، دمشق، ط4، 1407هـ – 1987م.
8. عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، مطابع جامعة القاهرة، ج2 عام 1980م،.
9. د. عبد اللطيف عبد الله دهيش: قيام الدولة العثمانية، ط 2، عام 1995م، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة.
10. د. على حسونه: تاريخ الدولة العثمانية، المكتب الإسلامى، ط3، 1994م.

11.القرمانى: تاريخ سلاطين آل عثمان، دار البصائر، دمشق، سوريا، ط 1، 1985م.

12.قطب الدين محمد بن أحمد المكى: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى، دار اليمامة، الرياض، ط1، عام 1967م.

13.قيس جواد العزوى: الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، مركز دراسات الإسلام والعالم، ط1، 1994م.

14.د. محمد حرب: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى، القاهرة، 1994م.

15.د. محمد حمدان: الجماعات اليهودية فى تركيا وأثرها على المجتمع التركى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، عام 2009.

16.د. محمد على الصلابى : فقه التمكين فى القرآن الكريم دار النشر الإسلامية مصر، 2004

17.د. محمد على الصلابى: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، بورسعيد، مصر، ط1، 2001م.

18.محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، القاهرة، عام 1896م، دار النفائس.

19.مسند الإمام أحمد ابن حنبل (4/335).

20.د. نبيل عبد الحى: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، مكتبة الطالب الجامعى، ط1، 1988.

21.نيقولا باربارو: الفتح الإسلامى للقسطنطينية يوميان الحصار 1453م، دراسة وترجمة وتعليق د. حاتم الطحاوى، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط1 عام 2002م.

22.يلماز أزوتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سلمان د/محمود الأنصارى، مجلد1، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، استانبول.

23.يوسف آصاف: تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام الجباى، دار البصائر، ط2، 1985م.